عمرو خليفة النامي: أديباً ناقداً وشاعراً مبدعاً

أ. حليمة قاسم علي
عضو هيئة تدريس كلية الآداب
قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
جامعة سبها

المقدمة:

لا يزال هناك الكثير من الشعراء الليبيين الذين لم يوفوا حقهم من التعريف، وأدبهم وشعرهم من الدراسة والتحليل، وعمرو خليفة النامي أحد هؤلاء الذين بُخس حقهم طيلة عقود مضت، ولأجل ذلك كان لزاماً على المختصين أن يولوهم كبير اهتمام، ولأجل ذلك أيضاً حاولت –رغم قلة المراجع– إلقاء بعض الضوء على أبرز إنتاجه الأدبي والفكري كناقدٍ لبعض الأعمال الأدبية، من خلال مقالاته التي نشرها في فترة وجيزة من حياته ما بين 1968–1969م، والشعر الذي قاله في فترات وظروف مختلفة، وهو ما سيكشف لنا أبعاداً معرفية وثقافية كثيرة عنه.

في ضوء ما تقدم جاءت خطة هذه الدراسة في مجموعة مقالات كان هذا أولها، تناولت فيه التعريف بهذه الهامة الشامخة من أبناء الوطن، ثم حاولت عرض وتحليل مقالتين من مقالاته، **وهما: 1–** (مهر الحضارة الغربية)، **2–**المقالة الأولى من سلسلة فصول من الجد الهازل وهي (توابع الزوابع) على أن أتناول باقي مقالات هذه السلسلة وغيرها، ثم قصائده الشعرية في مقالات لاحقة بإذنه تعالى.

أسأل الله تعالى أن تكون هذه المقالات باباً يثير مزيداً من الدراسات التي تزيح الستار عن الكثير من أدبائنا المغمورين وتعيد قراءة أدبهم بعين مختلفة.

أولاً: حياته:

1) نسبه ومولده وموطنه:

عمرو بن خليفة بن سعيد النامي (بتخفيف الياء) العزّابي، باحث وأديب وشاعر ومفكر إسلامي ليبي. ولد الدكتور عمرو خليفة النامي، حسب أغلب المصادر في عام 1939 بمدينة (نالوت)، بجبل نفوسة، والده هو "الحاج خليفة" وكان عالماً ورعاً في نالوت، اشتغل بالفلاحة والرعي، وهو الذي ربّى أحفاده بعد اعتقال والدهم "عمرو"، وأسكنهم منزله إلى وفاته عام 1984، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن على ولده، وأصابه العمى [1].

2) مسيرته العلمية:

اهتم والده بتعليمه ورعايته، فدرس عمرو على يديه أولاً، ثم ألحقه بكتّاب قريته، يحفظ القرآن الكريم، ويتعلم مبادئ اللغة العربية والعلوم الشرعية على يدي معلمي القرية، وفي مقدمتهم الشيخ مسعود قنان (ت: 1967م) إمام مسجد القرية، إلى أن سُجّل في مدرسة نالوت، فقضى المرحلة الابتدائية بها مدة ست سنوات من 1946م إلى 1952م.

تأثر منذ نعومة أظافره بفكر الشيخ على يحيى معمر، فكان يتردد على مجالسه رغم حداثة سنه[2]، ثم أكمل دراسته الإعدادية والثانوية بمدينة غريان عام 1957م، وكان يسكن القسم الداخلي التابع للمدرسة، وفي غريان التقى صديقه محمود الناكوع (الأديب، والقيادي الإسلامي) الذي ألف كتاب (عمرو خليفة النامي مسيرته – مواقفه – أعماله الفكرية والأدبية) وهو من أهم المصادر المنشورة عن حياة خليفة النامي.

في عام 1958م التحق بالجامعة الليبية بمدينة بنغازي حيث انضم إلى كلية الآداب والتربية، ليتخرج فيها بعد خمس سنوات حاصلاً على (ليسانس الآداب) بتفوق عام1962م، وفي تلك الفترة كانت له علاقات حميمة مع أساتذته الوافدين من جامعتي القاهرة والإسكندرية، خاصةً مع الدكتور محمد محمد حسن، الذي ربطته به علاقة بنوّة عميقة، وكان الدكتور معجباً بذكاء النامي ونجابته وأخلاقه، كما كانت الجامعة مكاناً حافلاً لنقاشاته ومحاوراته مع زملائه الطلبة بشتى توجهاتهم.

اختير بعد تخرجه لمواصلة دراسته العليا خارج ليبيا، فابتعث إلى جامعة الإسكندرية بمصر عام 1963م، التقى الشيخ أبي اسحاق إطفيّش، كما احتك بالمشايخ: علي يحيى معمر الليبي، ومحمد علي دبوز الجزائري، وسالم بن يعقوب الجزلي أثناء زياراتهم لمصر، وكلهم من أعلام الإباضية البارزين حينها.[3] عاد النامي قبل أن يكمل دراسته بسبب المحنة التي تعرض لها الإخوان المسلمون في مصر أثناء حكم عبد الناصر، فقد ألقي القبض أثناء ذلك على قادة الإخوان المسلمين، كما ألقي القبض على كل من له صلة بهم وبقادتهم، وكان النامي على صلة وثيقة بهم، كما التقى أكثر من مرّة بـ (سيد قطب) بل ويذكر أن حكماً غيابياً بالسجن لمدة خمس عشرة سنة قد صدر فعلاً ضد عمرو النامي، لعلاقته بالإخوان المسلمين من جهة، ولاتصاله المباشر بـ (سيد قطب) من جهة أخرى، لذلك غادر خليفة النامي مصر مسرعاً، تاركاً كل مراجعه وأوراقه وعاد إلى ليبيا عام 1965م قبل إتمام دراسته.[4]

عاد النامي إلى ليبيا، واستطاع إقناع إدارة الجامعة الليبية وعلى رأسها الأستاذ مدير الجامعة الأستاذ مصطفى بعيو، بتغيير وجهة دراسته من مصر إلى بريطانيا، فقدّرت الجامعة ظروفه ووافقت على إجراءات التغيير، وإلى حين استكمال إجراءات السفر والحصول على مكان في إحدى الجامعات البريطانية، مكث قرابة سنتين في ليبيا، سافر بعدها إلى بريطانيا عام 1967م، وأمضى في رحاب جامعة كمبريدج خمس سنوات، باحثاً ومنقباً حتى تحصّل على درجة الدكتوراه في الفلسفة والدراسات العربية عام 1971م، عن أطروحة عنوانها (تطور الفكر الإباضي ودراسة نظام الولاية والبراءة عند الإباضيين) بإشراف ر. ب. سيرجينت، الذي استفاد منه النامي استفادة جمّة، ويعد من أساتذته الكبار الموجهين لفكره.[5]

عاد في صيف 1971م إلى ليبيا وهو يتطلع إلى مكانة مرموقة في الجامعة الليبية، وهو تطلع يتناسب مع مواهبه الفنية الأدبية، ورغباته الإصلاحية الاجتماعية، فهو مثقف واسع الاطلاع، متنوع القراءات،[6] فعيّن بادئ الأمر محاضراً للأدب العربي والدراسات الإسلامية في كلية الآداب بالجامعة الليبية ببنغازي مطلع عام 1971م، والتقى هناك بمجموعة من المفكرين من أمثال د. عبد الرحمن بدوي، حيث كان يسكن العمارة نفسها،[7] ثم نقل في الموسم التالي إلى جامعة طرابلس بكلية التربية مدرساً لمادة الثقافة الإسلامية.

3) آثاره[8]:

مؤلفاته:

أ- أطروحة دكتوراه باللغة الإنجليزية، تحت عنوان "دراسات في الإباضية" "Studies in Ibadism" نالها عام 1971م، وقامت جمعية التراث بترجمتها إلى العربية، مراجعة د. محمد صالح ناصر ومصطفى باجو ومحمد بابا عمي، "وهي أول دراسة أكاديمية جادة يقدمها باحث إباضي".[9]

ب- كتاب "ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية"، ألفه وهو في السجن عام 1973م، صدرت طبعته الأولى عام 1979م.

ج- كتاب "القراءة العربية لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها"، بالاشتراك مع الدكتور محمد إبراهيم بن أحمد، والدكتور راجي رامونى.

د- "Description of new Ibadi manuscripts from north Africa" وصف لمخطوطات إباضية مكتشفة من شمال أفريقيا.

هـ- مجموعة من القصائد، منشورة في بعض الكتب والمواقع الإلكترونية.[10]

تحقيقاته:

أ- أجوبة ابن خلفون للعلامة أبي يعقوب يوسف بن خلفون المزاني (ق. 6هـ)، حققه ملحقاً بأطروحة الدكتوراه، وهو مطبوع في دار الفتح، لبنان، 1974م.

ب- "أجوبة علماء فزان: جناو بن فتى وعبد القهار بن خلف"، -المجموعة الأولى- حققها وقدّم لها الدكتور النامي، وأكمل التحقيق وأشرف على الطبع إبراهيم طلاي، طبع بدار البعث، قسنطينة، عام 1991م.

ج- "كتاب قناطر الخيرات للجيطالي – يشتمل على قنطرتي العلم والإيمان"، استهله الدكتور بمقدمة قيمة، وطبع في مكتبة وهبة بالقاهرة، عام 1965م، وصوّر بالجزائر.

د- رسائل الإمام جابر بن زيد (ت 93هـ) إلى أتباعه، و"مسائل التوحيد" للشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي (ت. 504هـ)، ورسالة "الزكاة" للإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة (ت. 150هـ تقريباً)، و"رسالة الحقائق"، للعلامة أبي القاسم بن إبراهيم البرّادي (ق. 9 هـ)، والقسم الثاني من الباب الأول من كتاب "قواعد الإسلام" للعلامة أبي طاهر الجيطالي، و"أصول الدين" للشيخ تيغورين بن داود بن عيسى الملشوطي (ق. 6هـ)، وكتاب "الرد على جميع المخالفين" لأبي خزر يعلا (ت. 380هـ)، حققه النامي، وأكمل التحقيق أحمد كروم.

هـ- "أصول الدين لتبغورين بن عيسى الملشوطي" ملحقاً بالدكتوراه. 6-"سير مشايخ نفوسة" للشيخ مقران بن محمد البغطوري (ق. 6هـ).

يظهر من كل ذلك رصيده الواسع من الاطلاع على التراث الإباضي وعنايته بتقصي مخطوطاته أينما كانت. "وهو بلا منازع رائد حركة البحث العلمي والتحقيق في مجال الدراسات الإباضية في العصر الحديث"[11].

المقالات والمحاضرات:

أ- نشرت صحيفة "العلم" الليبية ما بين عامي 1968 و1969م عدداً من المقالات النقدية لعمرو النامي منها: "الحضارة الغربية وموقفها من الإسلام والعالم الإسلامي" و"الشعر الحديث" نماذج ليبية، اختار لها عنوان: "فصول من الجد الهازل" ومقالات أخرى بعنوان: "رمز أم غمز في القرآن"، وفيها ردّ على كتابات الصادق النيهوم، ولعل أبرزها وأكثرها دويّاً مقاله (أي الصادق النيهوم): "إلى متى

يظل المسيح [بدون] أب"، ومن مقالاته المثيرة: "كلمات للثورة"، نشرت بصحيفة الثورة بتاريخ 1969/11/04م؛ أي بعد نحو شهرين من الثورة، وكان يومئذٍ بكامبردج طالباً.

ب- عدة محاضرات في ملتقيات وطنية ودولية، منها محاضراته بملتقى الفكر الإسلامي بوارجلان، حول الحركة العلمية بوارجلان في القرن السادس الهجري، ومن الكتب التي قدم لها: كتاب "مواقف فكرية" لمحمود محمد الناكوع.

4) منفاه ومحنته:

تبدأ محنة النامي عندما عاد إلى ليبيا صيف 1971م ليحقق حلمه، وليقف على منابر الفكر والعلم أستاذاً جامعياً وناقداً وشاعراً، ولكن بدل أن تفتح أمامه أبواب هذه المنابر، استقبلته مراكز الشرطة وغرف التحقيق، ومنها إلى المعتقل. ويبدو أن مقالته (كلمات للثورة) قد لفتت أنظار النظام إليه منذ ذلك الوقت، فجاء أول اعتقال كإنذار وتحذير، ولم يستغرق مدته أكثر من بضعة أيام، ثم استأنف حياته العادية، وبدأ نشاطه في الجامعة الليبية في بنغازي، ثم انتقل إلى جامعة طرابلس كما سبق القول.

في عام 1973م بعد خطاب زوارة اعتقل النامي مرة أخرى مع مئات من أهل الفكر والرأي وأصحاب التوجهات السياسية، بعضهم من الشيوخ، وكثير منهم من الشباب. ويذكر زميله محمود محمد الناكوع ذلك فيقول: "قضيت أنا وعمرو النامي قرابة العامين في السجن المركزي بطرابلس دون صدور حكم قضائي، بتهمة الانتماء إلى تنظيم لجماعة الإخوان المسلمين"،[12] وجماعة (الإخوان المسلمين) كما يذكر الناكوع كانت في عقد الستينيات تياراً ثقافياً تربوياً أكثر منها تنظيماً عقائدياً سياسياً، ثم أفرج عنه وطلبت منه الاستخبارات أن يغادر البلاد، وخيّر بين أن يكون منفاه في اليابان أو أمريكا اللاتينية أو أفريقيا، فاختار الولايات المتحدة الأمريكية، "وحتى تجري الأمور مجرى شرعياً -دون قصد النفي- تم تسيسها بحيث يُبعث النامي إلى جامعة متشجان بالولايات المتحدة لسنة دراسية كاملة، 76-1977م بصفته أستاذاً معاراً أو زائراً لتدريس اللغة العربية والثقافة الإسلامية"،[13] وقد أنجز الكثير من أعماله هناك، ثم عاد إلى ليبيا، بعد ذلك طلب منه الذهاب إلى اليابان وكان ذلك في بداية عام 1979م، ففعل وهو مكرهاً، قام هناك بتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية، لكنه عاد إلى أرض الوطن بعد أقل من عام.

عمل مدرساً بكلية الدعوة الإسلامية في طرابلس عام 1980م، ففي رسالة إلى الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي الديار العمانية يذكر له عمله في التدريس بها يقول: "وقد تم الترتيب على أن

أعمل بالتدريس في كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، وطلبتها من المسلمين غير الليبيين، وعزمت على أن تكون إقامتي بنالوت".[14] و يذكر الدكتور فتحي الفاضلي أنه قد عُرض عليه في تلك الفترة الإشراف على بحوث الكتاب الأخضر لكنه رفض ذلك.[15]

بعد هذه التجربة المريرة ما بين نفي واغتراب واعتقال وسجن أيقن النامي أن النظام لن يسكت عنه، وأنه سيجد المبررات لملاحقته واضطهاده، لذلك قرر الانسحاب والتخلي عن كل شيء، إلا عن دينه وعزته وكرامته والاهتمام بوالديه، وكان قراره المرير بأن يتحول من حياة إلى حياة، قرر الأستاذ الجامعي أن ينسحب من أضواء المدينة إلى شعاب منطقته (نالوت)، وأن يستبدل بمهنة التدريس الجامعي مهنة رعي الغنم، فاشترى قطيعاً من الأغنام وذهب إلى (ظاهر نالوت) مسقط رأسه، ومقر أسرته وأهله، لكن هذا الشاعر والأستاذ الجامعي لم يتمكن من تحقيق أمنيته إذ فوجئ مرة ثالثة عام 1981م بالاعتقال، وزج به في أحد سجون المخابرات العسكرية، وبقي فيها فترة طويلة، ثم نقل بعد ذلك إلى مقر المباحث العامة، ثم إلى أحد السجون في طرابلس، وبعد أحداث باب العزيزية في مايو 1984م، والتي اندلع فيها التصادم العسكري بين مجموعة (بدر) التابعة "للجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا" وقوات النظام، بعد تلك الأحداث هدم بيته وسرقت كتبه وأوراقه الخاصة ونقل إلى سجن مجهول، ثم انقطعت أخباره منذ 1986م.

ثانياً: عمرو النامي ناقداً:

كتب عمرو النامي سلسلة مقالات نقدية، نشرها في صحيفة (العلم) في الفترة ما بين 1968-1969م، تناول في مجملها الحضارة الغربية وموقفها من الإسلام والعالم الإسلامي، كمقالته "مهر الحضارة العربية"، أو سلسلة مقالاته التي اتخذت عنواناً ثابتاً: (فصول من الجد الهازل)، أو مقالاته التي كانت تنشر تحت عنوان (رمز أم غمز في القرآن)، وقد حملت نقداً ساخراً ولاذعاً لبعض الإنتاج الشعري العربي عامةً والليبي خاصةً، كما كتب عن (نوادي الروتاري)، ناقش فيها نشأة هذه النوادي وفكرتها وسيطرة اليهود عليها، وكان ذلك بمناسبة إنشاء فرع لهذا النادي في ليبيا، ومقالته السياسية الموسومة بـ(كلمات للثورة).

1) مقال مهر الحضارة العربية[16]:

بدأ عمرو النامي مقاله سائلاً القارئ: لو أن الحضارة غادةً حسناء فماذا كنت تمهر تلك الحسناء البارعة الجمال؟ ولو كانت المخطوبة هي الحضارة العربية فهل يغالي أهلها في مهرها؟ وهل يبلغون به حد المستحيل والشطط؟ ولا يترك القارئ يذهب في تخيل الافتراضات، بل يجيبه قائلاً: إنَّ المهر

الذي طلبه القوم قد صرّح به أحدهم منذ وقت بعيد، وهو قول وليم جيفورد بلكراف[17] الهالك: متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا عندئذٍ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لا يبعده عنها إلا محمد وكتابه، وهنا يشير الدكتور النامي إلى المستشرق الإنجليزي الذي كان في وقت من الأوقات مسؤولاً عن المدارس الدينية والهيئات التبشيرية المسيحية في البلدان العربية ومنطقة الشرق الأوسط. وحين اندلعت الحرب الأهلية في لبنان غادرها بلكراف إلى بريطانيا ثم إلى فرنسا، ومنها عاد في حملة تبشيرية إلى شمال الجزيرة العربية، مدعومة من الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث حين أقنعه بلكراف بأن المعرفة بأحوال الجزيرة العربية ستفيد أطماع فرنسا في أفريقيا والشرق الأوسط، أتقن العربية كأنها لسانه الأم، وألّف كتاباً عن هذه الرحلة "وسط الجزيرة العربية وشرقها" في جزأين.

يرى هذا المستشرق أن المسلمين لا يمكن أن ينجروا وراء دعواتهم التنصيرية ولن يحيدوا عن دينهم قيد أنملة ما دام القرآن الكريم كتابهم ومدينة مكة قبلتهم وحجهم، ولذلك عليهم العمل على هذا المنحى إن أرادوا جر المسلمين لحضارتهم.

نُشرت هذه المقالة وغيرها كـ "الغارة على العالم الإسلامي" لـ أ. ل. شاتلية في مجلة "العالم الإسلامي" الفرنسية قبل أكثر من مائة عام، وهي بيان للأعمال التبشيرية في العالم الإسلامي والمؤتمرات الخاصة بهذا الشأن.[18] تُرجمت هذه المقالات للعربية واطلع عليها في وقتها وبعده عدد غير قليل من المسلمين وأثارت كثيراً من الجدل، إذ أنها بيان للأعمال التنصيرية في العالم الإسلامي والمؤتمرات الخاصة بهذا الشأن، والتخطيط والعمل الدؤوب واستغلال واحتلال الأراضي الإسلامية.

رغم أن هذا الكتاب قد صدر منذ زمن بعيد، إلا أن علماء المسلمين ما انفكوا ينبهون لهذا الخطر الداهم، وهذا ما يشير إليه الدكتور عمرو النامي عندما كتب هذا المقال واستشهد بمقولة وليم جيفورد بلكراف، وهو يؤكد أن الإسلام هو الخطر الأكثر على مشاريع الغرب الاستعمارية "متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا عندئذٍ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لا يبعده عنها إلا محمد وكتابه".[19]

يقول الدكتور النامي: على الرغم من أن هذه الكلمة قد لفها الزمن منذ مدة، فيجب على كل مسلم أن يتدبر حروفها، وهي كلمة كفيلة أن تفتح أمام أعيننا مغاليق أسرار الصراع الدائم الدائب بين الإسلام وخصومه، وهي كلمة حقيقة بأن ترجع الكثير من أبنائنا إلى صوابهم في كثير من أفكارهم

وأطوارهم، ويستشف النامي من وراء ستار تلك الكلمات بعض مظاهر ذلك الصراع، ويكتفي بالإشارة إلى رؤوس **بعض المواضيع، وهي:**

1- إن ما توصل إليه أعداء الإسلام بعد خبرة طويلة بشؤونه، ودراسة متعمقة صابرة لأموره، هي أن سر قوة هذه الأمة وترابطها وتوافقها وانتظام أواصر الأخوة الكاملة بين أجزائها، هو الإسلام، وأن جماع أمر الإسلام وأصل منهاجه ودستور نظامه هو القرآن، وأن عليهم أولاً لتفتيت هذه القوة، وزعزعة هذا الجدار، أن يقضوا على هذا الكتاب، وعليه فإن مخطط النسف الشامل الكامل لأمة الإسلام كما يحدده -هذا الخبيث- ومقاله يستدعي أن يتوارى القرآن عن أهله.

2- يشير إلى أنَّ الجهود الجبارة التي بذلتها أجهزة الاستشراق والاستعمار في دراسة الأدب العربي واللغة العربية والثقافة الإسلامية، والجهود الجبارة التي بذلت في سبيل نشر التراث العربي وبعثه والتنقيب عنه وإزالة الغبار عن كنوزه، أن كل ذلك لم يتم لأن الغرب كان يفتش عن دين ليعتنقه أو لغة ليلتزمها أو أدب يقتبس منه، ولكن كل ذلك يتم ليتعمق الأعداء في معرفة هذه الأمة التي يتربصون بها الدوائر، ويعدون العدّة لاستئصال شأفتها، والقضاء على حضارتها، وتدمير وجودها ومسخ وجهها الإسلامي الأصيل.

3- يذكر النامي بعد ذلك كيف أن أجهزة الصليبية والصهيونية قد بذلت الكثير من الجهود للحيلولة بين المسلمين وقرآنهم بما أتيح لهم من فرصة للسيطرة العسكرية والسياسية على هذه البلاد في فترات الاحتلال والانتداب على السواء. وكان لتلك الجهود مظاهر عدة، على أن أخطرها وما سلكه هؤلاء من تحميل آلة الهدم لمن يسهل عليهم ذلك، ولا يستنكر منهم الأمر في عنف سافر أو عداء ظاهر، وكان أن حمّلوا آلة الهدم لأسماء مسلمة، وكان ذلك بأن ظهرت بين المسلمين أصوات تدّعي أسطورة القرآن وتشكك في حقائق الوحي، مدعية تحكيم العلم والعقل وما إلى ذلك، وهدفها هو التشكيك في القرآن الكريم وزعزعة عقيدة الإسلام في قلوب المسلمين بعد ذلك. ويشير إلى أن أوّل ما ظهر هذا الصوت عند المستشرقين على اختلافٍ في اللهجات وأساليب وطرائق العرض، فأخذ مسلك الدّس أحياناً والتصريح أحياناً أخرى.

4- أشار الدكتور النامي بعد ذلك إلى قضية هامة في الأدب العربي وهي قضية الوضع في الشعر الجاهلي في إشارة واضحة إلى طه حسين وكتابه "في الشعر الجاهلي"، كمثالٍ لمن حمل آلة الهدم من الأسماء المسلمة، فيقول:" ثم حمل طه حسين، وهو صاحب اسم إسلامي، راية الهدم فأحسن حملها ومضى بها كما يريد أسياده، فكان -كما يريدون- أكثر جرأة وجسارة، وخرج على الناس بكتابه

(في الشعر الجاهلي) الذي كان يلقيه محاضرات على طلبة كلية الآداب في الجامعة المصرية حينذاك". وفي نطاق حديثه عن الوضع في الشعر الجاهلي قرر طه حسين أن كثيراً من حقائق القرآن موضوعة أيضاً... وكان ذلك أشد ما تعرض له القرآن من محاولة الطعن في قداسته وصحة لغته، ثم يشيد النامي بالجهود القيمة والانتاج الرائع الذي تركه لنا أدباء الإسلام في دحضهم لتلك الآراء ودفاعهم عن كتابهم وعلى رأس هؤلاء –كما يذكر النامي– هو الفتى المبرز في حلبة ذلك الصراع، هو أديب العربية المعاصر ومنشئها الفذ المنافح الصوّال عن تراثها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، فقد كان أمة وحده في ذلك الصراع الصاخب، ثم يوصي النامي الشباب المثقف بقراءة جميع كتبه ومتابعة ذلك والاستمرار عليه لما يتمتع به أسلوبه من سلامة وقوة، وحتى يألفوا بيان العربية الأصيل وتسيغ أذواقهم أسلوبها الرفيع.

5– يعرض الدكتور النامي إلى مظهر آخر من مظاهر الصراع، وهو ما استطاع أن ينفذ به الاستعمار إلى المناهج التعليمية فاستحدث أساليب قللت من محصول الطلبة من القرآن الكريم وأنقصت من حصص الدين، وحصرت اللغة في دراسات شكلية محدودة، فكان حظ الأجيال المتعاقبة بعد ذلك من نصوص دينهم وقرآنهم ولغتهم وأدبهم وما يشكّل ثقافتهم المتميزة محدوداً ضئيلاً، وحجتهم في ذلك أن ذاكرة التلميذ الصغير تنوء بكل ذلك العبء الثقيل، وقصدهم من كل ذلك كما يرى النامي هو تفويت الفرصة الذهبية على هذا الكتاب المنزّل ولغته حتى ينشأ الجيل بمعزل عنهما، ويؤيد دحضه هذا الرأي بالقول الذي يؤكد أن مخزون الذاكرة الذي يتحصل عليه التلميذ في فترة لم تكتمل فيها مداركه العقلية بعد، هو الرصيد الذي تعمل فيه هذه المدارة مستقبلاً حيث تكون فترات الدراسة التالية مجالات لشرحها وإيضاحها، ويكون موقف الطالب حينذاك ممتازاً عندما يجد ذاكرته تمده بذلك الرصيد المدّخر في فترة نضجه العقلي واكتماله الفكري.

6– أمّا المظهر الذي يعده النامي أشد خطراً وأبعد أثراً وأكثر خبثاً؛ فيتمثل في حركة نشطة، أضمرها أعداء الأمة وعملاؤهم، كان هدفها قطع صلة حاضر هذه الأمة بماضيها وقطع لغتنا من أصلها، وقد أخذت هذه الحملة في نظر النامي سبيلين رئيسيين قصد أحدهما إلى الحرف العربي فادعى قصوره وتعقيده وعدم إيفائه بحاجة الكتبة والمؤلفين، وتعددت الاقتراحات باختراع حروف جديدة للغة العربية، ويذكر أن أثر هذه الشطحة قد وصل إلى صحف طرابلس، لكنه انتهى بدون شك إلى سلة المهملات. ويبين أن هذا الأمر قد بلغ أن اقترح بعضهم استبدال الحرف العربي الشريف بالحرف اللاتيني، وذكر بالخصوص أن من أشهر أصحاب هذه الدعوة (سعيد عقل)، بل أصدر كتاباً بالفعل طبعه بالحرف

اللاتيني، وأوضح النامي أن خلاصة القصد من هذه الدعوة الهدامة أن يجيء يوم ننسى فيه الحرف العربي ويحجب كل ميراثنا الكريم الغزير الذي كتب وطبع به عن الأجيال التي تجهله فتنقطع صلتنا بالقرآن وتراث السلف، وضرب مثلاً لما آل إليه الحال في تركيا، وكيف أصبحت بعيدة عن نتاجها الضخم الغزير في ميدان الفكر الإسلامي.

7- أمَّا السبيل الثاني لهذه الحركة في رأي النامي فهو ذلك التحامل الشديد على أسلوب النحو والقواعد اللغوية للغة العربية، فقد سرت دعوة للتنديد بالأسلوب القديم الذي اتخذه السلف لضبط قواعد لغتهم وتحديد أساليبها وصبها في قواعد ثابتة محدودة، ووُجِد من دعا إلى نحوٍ جديد، بل ومن كَتَبَ نحواً جديداً.

يبين الكاتب أن نتيجة ذلك ظهور عقدة تركزت عند متعلمي دراسة النحو، ويركز على أن هذه العقدة قد نشأت عند طلبة المدارس (المدنية)،[20] فما تكاد تجد اليوم من يتقن هذا العلم، بل لا تكاد تجد من يحسن أولوياته، ويستثني من هؤلاء من قرأه في معاهد الدين واللغة على الأسلوب القديم، وكان نتيجة ذلك أن نشأت أجيال لا تحسن تذوقاً للنص الأدبي ولا فهماً له، فهو يدعو إلى العودة إلى تدريس النحو بالطريقة القديمة والتي كما يقول قد أثبتت التجربة صلاحها واستقامتها ونفعها.

8- إلى جانب هاتين الصورتين يذكر النامي بروز دعوة أخرى ذات نهج رهيب، وهي (الدعوة إلى العامية)، ويقول إنه بدل أن تُرفع العامة إلى لغة القرآن الذي يحيينا بهديه ونوره صرنا نهبط إلى مستوى السوقة نتلطف شهواتهم ونستلطف عواطفهم ونتذلل لعقليتهم بحجة الأدب للشعب والفكر للشعب. ويعد النامي هذه (الدعوة الشعوبية) أخطر معاول الهدم لوحدة هذه الأمة وأشدها تأثيراً في إلهائها وإضلالها عن الحق الذي أنزله الله إليها وهو القرآن الكريم، وللتوسع في معرفة أخطار هذه الدعوة وآثارها، يحيل النامي القارئ إلى الرجوع إلى رسالة الدكتوراه التي كتبتها الدكتورة: نفوسة زكريا [21] بعنوان (الدعوة إلى العامية)، ويؤكد النامي في آخر المقال أن هذه هي مجرد رؤوس أقلام لبعض الوسائل التي ركز عليها أعداء الإسلام، وحملها بعدهم بعض ممن يتسَمون بأسمائنا ويتزينون بأزيائنا ويوالون أعدائنا، وهي بعض مظاهر التنفيذ للمخطط الذي حددته كلمة اللورد مستر (وليام جيفورد بلكراف) في نصفها الأول، وهي الدفعة الأولى من المهر المطلوب، ويَعِد القارئ للنظر في بقية الدفعات في الحلقة التالية على حد قوله، ثم ختم مقاله بكلمة (يتبع)[22] .

جاء هذا المقال وغيره من مقالات النامي بدافع من غيرة الكاتب على اللغة العربية في وقت كانت الأفكار الوافدة من الغرب في تلك الفترة (الستينيات) بالغة الأثر في بعض أدباء الوطن العربي، وفي

وقت كان الفضاء الفكري والثقافي يسمح على نحو كبير بانتشار تلك الأفكار المتأثرة بالغرب وشيوعها، في شتى الأغراض الأدبية، مبتعدين عن الأصالة العربية ومعتقدين أنها قد تسيء إلى أدبهم وتقلل من أهميته الإبداعية.

لقد كان لهذه الدعوة ردود أفعال على الساحة العربية في الماضي أو الحاضر، من مثل عائشة عبد الرحمن التي ترى أن الدعوة للعامية "لا تعتمد على المنطق بقدر ما تعتمد على الجدل الخطابي والاستهواء الحماسي، وتحاول أن تأخذ طريقها إلى مواطن التأثير مما تقحم على الميدان من دعوى الحرص على مصالح الجماهير والانتصار لعاميتها وتيسير سبل الثقافة لها".[23]

أما عبد السلام المسدّي، فيؤكد "أن تكريس اللهجة حاملاً للرسالة الثقافية، وبديلاً عن اللغة القومية، لهو الانتحار الجماعي على عتبات قلعة التاريخ".[24]

لو حاولنا استخلاص أهم الأفكار التي تناولها النامي، لوجدنا أنه يحاول التنبيه للخطر الذي يحيق باللغة العربية والإسلام بتأثير الحضارة الغربية المدروس والموجه، وقد اتخذ نموذجاً من تلك السهام وهو ما صرّح به أحد المستشرقين منذ وقت بعيد، وما كان هذا ليثير حفيظة الكاتب لولا ما وجده من صدىً لهذا المقال وغيره من تأثر لدى الكتّاب العرب ومنهم الليبيين على وجه الخصوص، وهو ما سيتناوله في مقالات لاحقة، وقد أشار في هذا المقال لأهم مظاهر ذلك **الصراع وهي:**

أ- إن جماع أمر الإسلام وقوته هو القرآن الكريم، وعليهم أن يقضوا على هذا الكتاب، وانعكس ذلك في الجهود الجبارة للبعثات الاستشراقية وتعمقها في دراسة الأدب العربي واللغة العربية والثقافة الإسلامية. و بالرغم من إننا نؤيد الدكتور النامي فيما ذهب إليه، ونقدر الدواعي لذلك، ونؤكد أن بعض الموجات الاستشراقية كان هدفها الهجوم على الفكر العربي وعلى القومية العربية، واللغة العربية، والعقيدة الإسلامية، والتراث؛ فإننا لا نستطيع أن ننكر أن بعض الدراسات الاستشراقية للغتنا أضحت جزءاً لا يتجزأ من الدراسات العربية؛ فآثار الاستشراق لم تكن جميعها سلبية، فقد كان لبعضها الفضل في الكشف عن التراث، وصونه وتقديمه، وفهرسته وتصنيفه، كما كان لها دور في الترجمة، والتحقيق العلمي وفي إنشاء دوائر المعارف، وفي جمع المخطوطات من كل مكان وتحقيقها؛ مع التأكيد أنه يجب أخذ الحيطة والحذر في الأخذ بالمقولات الأوربية في مجال اللغة باعتبارها مسلمات.

ب- تحميل آلة الهدم لأبناء هذه الأمة، خاصةً منهم من درس في تلك الدول وتأثر بمدارسها.

ج- تأثر المناهج التعليمية في المدارس بالتقليل من محصول الطلبة، خاصةً في مادتي القرآن الكريم واللغة العربية.

د- استبدال الحرف العربي الشريف بالحرف اللاتيني.

هـ- الدعوة إلى العامية، وقد عدّها أخطر معاول الهدم لوحدة هذه الأمة.

هذه أهم الأفكار التي جاءت في هذا المقال، تناولها الكاتب في تسلسل وترابط، فقد بدأه بمقدمة أشار فيها إلى الموضوع الأساسي، ثم برهن على فكرته، ثم عاد وأكد ذلك في خاتمة المقال، يتضح كذلك مدى الحرص الشديد وصدق المشاعر النابع من غيرته على بني أمته ولغته، فانعكس على أسلوبه إذ حمل التعجب أحياناً والتحذير والغضب أحياناً أخرى.

اتخذ النامي الأسلوب الخبري في هذا المقال، وقد نجح في ذلك إذ الغرض الأساسي منه هو التأثير والإقناع بالحجة والبرهان، وهذا يستدعي منه أن تكون جملة إخبارية وفقراته طويلة بعض الشيء، أما استخدامه الأسلوب الإنشائي فقد جاء في استفتاح المقال فقط، حتى يثير مخيلة القارئ وينبهه لأهمية الموضوع، وقد استعان ببعض الصور الخيالية أحياناً لإبراز فكرته، ابتداءً من العنوان (مهر الحضارة الغربية) أو قوله لو تخيلت الحضارة غادةً حسناء قد تعرض لها الخطّاب كل يريد أن يرجع بها إلى داره، فماذا كنت تمهر تلك الحسناء البارعة الجمال؟ وإذا كانت المخطوبة هي الحضارة الغربية فهل يغالي أهلها في مهرها وهل يبلغون به هذا المستحيل والشطط؟، فقد جعل الحضارة الغربية غادة حسناء بارعة الجمال في إشارة إلى المظاهر الخارجية الخادعة لتلك الحضارة، وجعل مهرها غالٍ يدفعه من يريد الحصول عليها، في إشارة إلى ما قد يتنازل عنه من يريد اللحاق بها ولو كان أغلى ما يملك كدينه أو لغته.

استخدم النامي صورة أخرى حين أراد الإشارة إلى أن هناك من حاول النيل من هذه اللغة من أبنائها بتبني تلك الأفكار ومحاولة إقناع الناس بها، لكنه لم ينجح، فقال: "وأدلى الجميع بدلائهم فعادت فارغة. وكان كثيراً ما يؤلمه ذلك فيقول في رسالة إلى أبي اليقظان إبراهيم يشكو فيها اشتداد الزمان على الإسلام والمسلمين، وحال الشباب المسلم وما يعيشه من هوان وذلة وجبن وتقاعس عن الإصلاح، ويسأله الدعاء فيما يحوط بهم، "من أهوال هذا الزمان الذي اشتدت ضرباته على الإسلام والمسلمين، فنشأ فيه أجيالنا على مصيبتين: مصيبة الضياع والذلة التي يعيشها المسلمون، ومصيبة الأنساع التي تعقل ألسنتهم عن نداء الإصلاح"[25] .

2) فصول من الجد الهازل: توابع الزوابع (صورة خيالية):

جاء هذا المقال (توابع الزوابع) ضمن سلسلة مقالات النامي النقدية بطريقة ساخرة لاذعة كما هو واضح من عنوانها، فهي في فصول أي أكثر من مقال، وهي تتناول كلام جدي مقصود في صورة خيالية من الهزل الساخر، لذلك جعل النامي المقال الذي نحن بصدده تحت عنوان (توابع الزوابع) كما هو واضح فقد اختار الكاتب أن يكون موضوعه متابعة وتكملة لرسالة (التوابع والزوابع) لابن شهيد الأندلسي،[26] والتي حرص فيها ابن شهيد على عرض المشكلات الأدبية والبيانية، بطريقة قصصية خيالية ساخرة، عرَّض فيها بمعاصريه وذكر مآخذه على المتقدمين منهم شعراء وخطباء، وقد تناول ابن شهيد قضيته هذه بطريقة مسرحية، فالمسرح عنده واحد وهو وادي الجن في الدنيا (وادي عبقر)، والممثلون الرئيسيون شاعر يسأل وجنٌّ توابع مسخرون يجيبون، فالتوابع مفرد تابع أو تابعة؛ أي ما يتبع الإنسان من الجن، والزوابع جمع زوبعة اسم شيطان أو اسم رئيس من الجن، حرص ابن شهيد في هذه الرسالة على أن يُنطق الجن بالآراء التي يعتقدها في معاصريه وذلك كحواره مع بعض الجن في قوله: "... ولكني عدمتُ ببلدي فرسان الكلام، وذهبتُ بغباوة أهل الزمان ... قال: فكيف كلامهم بينهم؟ قلت: ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سِمة، إنما هي لكنةٌ أعجميةٌ يُؤدُّون بها المعاني تأدية المجوس والنبط، فصاح: "إنا لله، ذهبت العربُ وكلامُها".[27]

على هذا المنوال نسج عمرو النامي مقالته كأنها تكملة للتوابع والزوابع في العصر الحديث، اتبع فيها أسلوب ابن شهيد وطريقته في عرض فكرته، فهي استمرار لرحلة خيالية بين الشاعر وشيخ الجن، يسوح به في وادي عبقر مستكملاً حيث وقف ابن شهيد، فقد صدّر مقالته بقول ابن شهيد وكأنه مستأنفاً لحديثه، "وقد رأيت في قطعة وجدتها في مخالفات أحد الشعراء المفلقين من أهل عصرنا كتب على ظاهرها: هذا من علم المستقبل، وختم عليه بخطه هكذا: لو حدثت الناس بهذا لرموني بالجنون، ولو علم الناس ما علمته من ذلك واعتبروه لاحتاطوا لحالهم".[28] فبدأ هذه العبارة كما نلاحظ بواو الاستئناف، لكنه ينقلنا من الماضي إلى الحاضر الذي أشار إليه بقوله (من علم المستقبل) هو استشراف المستقبل، غير أن ما في الكتاب من العجب لو أنه حدّث به لرُمي بالجنون لغرابته ولاحتاط الناس منه لخطره.

يقول إن ابن شهيد أخذه العجب وفك الختم وقرأ الكتاب، فإذا فيه عجباً، لدرجة أنه كتم روايته في مجالسه التي أملى فيها (رسالة التوابع والزوابع) لأن ما وجده أدخل في علم الغيب والتنجيم،

والإفصاح بما فيه رجم من الرجم، وإنما ترك ذلك للزمن فهو وديعته، ربما جاء وقته من بعد ... فحسن حفظه وكتمانه الآن. ثم استحلف من وقع إليه هذا الكتاب ألا يسخر منه ومما فيه. فقد عُرف على صاحبه كل سيمات الصلاح والورع، وفي هذا إشارة إلى (دواعي السخرية منه في زمنه وعدم تصديقه لما فيه من غرابة رغم ما عرف عن صاحبه من صلاح وورع، ثم يذكر ذلك الشاعر المفلق من عصر ابن شهيد صاحب هذا الكتاب فيكنيه بـ(أبي سعيد الأندلسي)، ثم يخبرنا النامي أنه من حسن حظه أن عثر على ورقات قديمة مخطوطة، تحتوي على قطعة من ذلك الكتاب الذي أخبر عنه ابن شهيد، فعجب مما فيها أشد العجب، ورأى أن يتحف به قراء صحيفة (العلم) لما فيه من فائدة، وفي ذلك إشارة إلى أنه لم يعد ما فيه عجباً، إنما العجب كيف تأتي لمن في زمن ابن شهيد الأندلسي أن يعلم ذلك.

أورد النامي نص الكتاب المزعوم، فبعد البسملة، والتوكل على الله والصلاة على نبيه، قال على لسان أبي سعيد إنه قد جمعته سياحة من سياحاته بشيخ صالح من شيوخ الجن، وكان ورعاً تقياً ممن أسلم وحسن إسلامه وكان صاحباً للبيد بن ربيعه، وأنه ألهمه بعض شعره، وروى عنه معلقته، حافظ للقرآن قد هجر الشعر فما يتيسر له منه إلا حكمة أو دعاء.

لقد شاقه مرة أن يعرف أخبار الجن، فناجته نفسه أن يسأل صديقه الشيخ الصالح لعله يتحفه بإثارة من علم ذلك، أو طرف منه، فسأل الشيخ فوجده برماً بذلك، ولولا الود الذي أحكم عراه لاعتراه من أجل ذلك تغير في شأنه معه، لكنه تبسط وتهلل وقال له في إنكار: وماذا تريد إلى ذلك يا أبا سعيد؟ ولك في خاصة نفسك وإصلاح شأنك ما يشغلك بقية عمرك، وما بقي منه غير ظمأ حمار، وإنما حقيقة الدنيا فيما تقدمه بين يديك من عمل صالح ولو حزت علم الإنس والجن، والماضي والحاضر والآتي، فنلت الغاية في كل ذلك لما كان فيه غنى عن عمل صالح تقصد به وجه الله تعالى ... ولكم يطوي الزمن من صحائف هذا الخلق من إنس وجن، فكأنهم ما ساروا على الأرض ولا درجوا بها ... وهذه ديارهم خاوية كأن لم تكن عامرة بهم يضربون فيها ويروحون ويغدون، وقد شهدت بين مولدي ويومي هذا شؤون الدهر وتصاريفه وأعاجيبه ما تشيب لو حدثتك ببعضه يا أبا سعيد.[29] طلب أبو سعيد من الشيخ أن يحدثه عن الشعر فهو امرؤ شاعر يطرب للطريف من القول ويرتاح له، وتنفتح له نفسه، فاستغرب الشيخ وقال: "وأنت تريد من ذلك حديث الشعر، ويحك أما قرأت في كتاب ربّك قوله الكريم (والشعراء يَتْبَعُهُم الغاوون) [30] ..؟ فأجابه إنما أرد حديث الشعر ليحترز من الغي، وإنما يحذر المرء عيب الذي يخشاه من نفسه، ثم له أن يستقصي ما بعد ذلك ..."

يقول أبو سعيد: "فضحك الشيخ حتى أحسست لفح أنفاسه تلسع وجهي وأبرقت عيناه برقاً لامعاً خفيفاً، وقال: يا أبا سعيد، إن الغي في شعر اليوم لقليل، وإن الغي في شعر الأمس أقل من ذلك، وإنما قصارى أمرهم أن ينطق أحدهم كذب القول وزوره، أو يفحش على أحد ببذاء يقذع فيه، أو يتزيد في قوله بما تزينه له شياطيننا، فكيف بك لو رأيت "شعراء آخر الزمان، أو سمعت بعضاً من قولهم؟" (31)

يسأله أبو سعيد مستغرباً أنْ هل له علم بآخر الزمان؟ لقد أخبر نبي الله صلى الله عليه وسلم بعلامات الساعة، وبعض حال الناس في آخر الزمان، لكنه لا يعرف حديثاً صحيحاً ولا موضوعاً عرض فيه لذكر "شعراء آخر الزمان" ويسأله أن ينبئه ببعض ذلك، فيجبه الشيخ بقوله: "إنما يكونُ ذلك بعد دهورٍ كثيرةٍ، وذلك أن أسلافنا من شيوخِ الجن قد أخبرونا أنه يكون منا شعراء من جيلِ آخر الزمان، يلقون وساوسهم إلى شعراءِ الإنسِ كما نفعل في كلِ زمانٍ، وقد جعلوا وقتَه علامة شرٍ يعم الخلق ويستفحل فيهم، ويُستضعَف المسلمون ويكثر فيهم الزيغُ والإلحادُ والنفاقُ، وتُنتَزعُ منهم قبلتهم الأولى، ويُبتَلون بكلِ بلية، وقد وصف أشياخُنا ذلك الجيل منا أنهم من بني الأصفرِ وبني الأحمرِ، من أفخاذِ "ماو" و"لينون" هم خلق يعم فيهم الكفرُ بالله والإلحاد فيه سبحانه، وتجمعهم كراهية وحقد على الإسلام، ويبلغون من أسباب القوة مبلغاً عظيماً، ويحاولون غزو بلاد المسلمين واحتوائها فيُعجزهم ذلك، وذلك لأنه تكون قد غلبت على بلاد المسلمين أممُ الكفرِ قبلهم، فصارعوها وأخرجوها من غالبِ ديارهم، وحذَّروا من كل أسباب التسلط والغلب الظاهر".[32] ثم يستمر النامي في سرد أوصافهم على لسان شيخ الجن، وما يتميزون به من تطور علمي واختراعات، في إشارة إلى التلفاز، واكتشاف الذرة، وصناعة الأسلحة الفتاكة التي تهلك كل شيء وتنسف الجبال فتجعلها كالعهن وغيرها. وبالرغم من ذلك فقد ساقهم عقلهم إلى ابتداع أساليب وطرائق للغزو، مما يتجنب معه سلاح الفتك والقتل "والشعر أحد تلك المطايا، ولما كان هؤلاء أعجاماً لا يفقهون كلام العرب ولا يقيمون لغتهم، فإنه يستعصي عليهم قول الشعر على النسق المعروف المألوف، ولن يستقيم لأحدهم شطر بيت ولو قضى بياض نهار من أجل سواده، وقد خَبِرت ذرية إبليس –عليه وعليهم اللعنة– من سبل الكيد ما يقودهم إلى ابتداع لون جديد من "الشعر"، يسهل القول فيه على كل غادٍ ورائح، فيقولون ويوسوسون به إلى "شعراء آخر الزمان" من مسلمي الإنس"[33] .

ذكر الشيخ الجني أن من فضائل الشعر التي عدها (أبو بحر) أن الرجل يقول الشعر البارد الثقيل الذي يكون سبة على قائله، فما يسكن حتى يفشيه ويذيعه فرحاً به ... هكذا يذيع شعراء آخر الزمان

ما يحسبونه شعراً، ولو قرأ ذلك على الناس اليوم لأصابهم منه دوار وغثيان، ولو سمعه أبو بحر الجاحظ لطارت عيناه من وجهه. قال أبو سعيد، لقد علَّمنا شيوخنا أن الشعراء أربعة، وقالوا عن الذي جاء في ذيل القائمة: وشاعرٌ لا تستحي أن تصفعه، ولقد هولت عليّ بخبر شعراء آخر الزمان، فأين هم من ذلك التصنيف؟ فيجيبه صديقه الجني: هم يأتون بعد ذلك بمراحل كثيرة، وأحسبني سمعت فيهم من بعض أشياخنا وصفاً لهم في أرجوزة طويلة نسيتها الآن، فما أذكر منها غير قوله:

وشَـاعرٌ تَرمي بِه وتصفعهْ وَشاعرٌ تُلقي عليهِ بردعةْ
فَشعرُهم (مردغةٌ) مُسْتَبشَعَهْ أوصَالُه مبتورةٌ مقطعةْ
يؤُذيْكَ مِنَ القولِ حِينَ تَسْمَعَهْ خَلا مِنَ المَعنَى فَلَيْسَ يَسَعَهْ
وَمَا تَرَى مِنْ ذَلِكَ غَير أَشْنَعَهْ فَيا لَنَا مِنْ مِحْنَةٍ مُرَوّعَةْ
يَلْقَى بِهَا الشِّعرُ الأصيلُ مَصْرَعَهْ فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ لَه فَيَرْدَعَهْ[35]

يذكر له الجني بعد ذلك أسماء وأوصاف بعض من أساطين ذلك الشعر؛ فيذكر بدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وصلاح عبد الصبور، ووصف أحدهم ممن رآه بأنه شخصٌ قصيرٌ متطامنٌ يضع على عينيه حلقتين من زجاج ويفرق شعر رأسه ويدير حول عنقه خيطاً أسود يربطه بطريقة غاية في الدقة والإحكام.

يقول أبو سعيد لصديقه الشيخ: إن أمر هؤلاء لعجب، وأحسبك قد عرفت ما اختاره شيخ المعرة للشعراء الرُّجَّاز في رسالة الغفران، فهو على ما أذكر قد أعطاهم أكواخاً في الأعراف، فليت شعري ماذا كان يصنع بهؤلاء لو سمع شعرهم وعرف لغتهم؟ فأجابه الشيخ: ما أظنه يحفل بهم، أو يحسب لهم حساباً ولو فعل لجعلهم في الدرك الأسفل من النار، فذلك أشبه بحمرتهم، ولعلك تحب أن تسمع بعض شعرهم حتى يكون الأمر أفصح وأوضح.

يقول عمرو النامي: وهنا انقطعت المخطوطة التي بيدي وقد فقدنا بضياعها فصلاً غاية في الإمتاع، ولو بقي ربما عرفنا منه الشيء الكثير، فرحم الله أبا سعيد الأندلسي وصديقه الشيخ الجني، وقد رأيت أن أنشئ بعد هذا فصولاً أصل بها ما انقطع من كلام تلك المخطوطة، فنحن على علم بكل ذلك الآن، أعني أننا في "آخر الزمان".

يتضح أن الدافع من وراء كتابة هذا المقال، هو إظهار تأثر الشعراء العرب بحضارة الغرب، وهو ما أشار إليه في مقاله السابق وحذر منه، وبما أن عمرو النامي أديب ومثقف واعٍ لقضايا عصره، مطلع على تراث أمته في الماضي والحاضر، فقد اطَّلع على رسالة (التوابع والزوابع) لابن شهيد

وتأثر بها تأثر محدود جداً، فالمطّلع على رسالة (التوابع والزوابع) يلاحظ في إشارات عديدة أن دافع ابن شهيد الأساسي هو حرصه على إظهار التفوق على شعراء عصره، أما النامي فلا يبدو ذلك أبداً من مقالاته سواء التي بين أيدينا الآن أم غيرها، إنما وجه الشبه بينهما في الفكرة الأساسية، وهي إظهار ما يراه عيوباً في شعراء عصره بشكل نقدي ساخر. وواضح كذلك أن النامي قد استوحى فكرته من بعض ما ورد في رسالة ابن شهيد كقوله السابق "ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام ... إنما هي لكنة أعجمية يؤدون بها تأدية المجوس والنبط".

لقد نجح عمرو النامي في عرض فكرته فجاءت كنسيج متشابك الخيوط مع رسالة (التوابع والزوابع) وكأنها امتداد لها، إذ جارى فيها ذات الأسلوب والسياق على خلاف أسلوبه المعهود في مقالات أخرى، ولذلك جعل عنوانها (توابع الزوابع)، وابتدأها بواو الاستئناف كما أشرنا، وأن هذه القطعة هي (من علم المستقبل).

لو تتبعنا أهم ما ورد في هذا المقال لوجدناه يدور حول فكرة واحدة هي تأثر الشعراء العرب بالحضارة الغربية، جعلها النامي في عدة محاور جاءت تباعاً على لسان ابن شهيد الأندلسي وشيخ (صالح من شيوخ الجن) هو صاحب لبيد بن ربيعة كالتالي:

أ- أول ما يطالعنا هو أن ما في هذا الكتاب الذي وجده ابن شهيد وفك ختمه هو من علم المستقبل، وأن ما فيه شيء لا يصدق، إذ كُتب على الختم أن لو حدّث الناس به لرموه بالجنون، ولاحتاطوا لحالهم، دليل على عدم تصديقه وبعده عن الواقع ولخطره، إذ يستحلف من يقع عليه ألا يسخر منه.

ب- إن غاية ابن شهيد في رسالته التي يمليها في مجلسه أن يتحف مستمعيه بطرائف الأدب ونوادر الشعر رغم ما فيها من خيال، لكن ما وجده في هذا الكتاب لا يدخل في ذلك فأحجم عن الإفصاح عنه.

ج- يشير النامي إلى أنه عثر على ورقات قديمة من هذا المخطوط، وهي من أول الكتاب مبدوءة من البسملة، إشارة إلى أن ما وصل إليه شعراء هذا الزمان هو بداية لذلك التأثر وربما الآتي أعظم وأعجب.

د- جعل هؤلاء الشعراء ضمن الشعراء الغاوون الذين حذر منهم القرآن الكريم، وإنهم فاقوا ما كان عليه السابقون من الغي، إذ الغي كان عندهم قليلاً لا يقارن بما سيكون عليه غي الشعراء مستقبلاً،

فكان قصارى أمرهم أن ينطق أحدهم كذب القول أو زوره، أو يفحش على أحد ببذاء يقذع فيه، أو يتزيد في قوله بما تزينه له شياطينهم.

هـ- إنه جعل ظهورهم علامات آخر الزمان، وهو زمن يعم الشر فيه الخلق ويستفحل، ويُستضعف المسلمون ويكثر فيهم الزيغ والإلحاد والنفاق، وتُنتزع منهم قبلتهم، ويُبتلون بكل بلية.

و- رمز النامي لتلك الأمم من المستشرقين المتكالبة على المسلمين على لسان شيخ الجن بأنها من الجن الذين يوسوسون لشعراء المسلمين، بقوله: (وقد وصف أشياخنا ذلك الجيل منا أنهم من بني الأصفر وبني الأحمر، من أفخاذ "ماو" و"لينون"، إشارة لـ(ماو تسي تونغ) الشيوعي مؤسس جمهورية الصين الشعبية، والسياسي الشيوعي (فلاديمير لينين)، يجمعهم بغض وحقد على الإسلام، يحاولون غزو بلاد المسلمين فيعجزون عن ذلك، فابتدعوا طرائق جديدة للغزو، فجعلوا الكلام والرأي والفكر مطية غرضهم، والشعر أحد تلك المطايا، وهنا يصرح بأبرز مظاهر ذلك التجني على الشعر في نظره، وهو بناء القصيدة العربية على النسق المعروف منذ القدم، وبما أن هؤلاء القوم أعجاماً فإنه يستحيل عليهم حين يوسوسون لشعراء العربية أن تأتي تلك الوسوسة على أوزان العرب المألوفة، و كعادة ذرية إبليس لا يعدمون حيلة في إغواء بني آدم، فابتدعوا لون جديد من الشعر يسهل القول فيه، وهنا يرجع كاتب المقال أسباب نشوء الشعر الحر إلى العجز عن الإتيان بالشعر العمودي.

ز- إنما يقال اليوم من الشعر الذي يعده النامي شعراً هابطاً فاق ما كان يعد قديماً شعراً بارداً ثقيلاً في نظر النقاد القدامى، بل هو مما يثير الدوار والغثيان عند سماعه، بل إنه يأتي بعده بعدة مراحل، فآخر مرحلة في تقسيم القدماء تكون أول مراحل شعراء هذا العصر عند النامي، وهو بذلك يشير إلى الشعر المأثور عند العرب:

وَالشُّعَرَاءُ فِي الْزَّمَانِ أَرْبَعَةْ
فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يَخُوْضُ وَسْطَ الْمَعْمَعَةْ
وَشَاعِرٌ مَا تَشْتَهِيْ أَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ لَا تَسْتَحِيْ أَنْ تَصْفَعَهْ

على هذا المنوال صاغ النامي أبياته معارضاً بها مأثور الشعر القديم، ومعبراً فيها عن رأيه في بعض شعراء هذا العصر الذي لا يروقه سماع شعرهم. فالشاعر منهم بدلاً أن يُكرَّم تكريم كعب بن زهير بالبردة، تلقى عليه بردعة، فهو شعرٌ مبثور مقطع الأوصال يؤذي السمع، خالٍ من المعنى،

يلقى به الشعر الأصيل محنته ثم مصرعه، ثم يذكر النامي على لسان شخصيات التوابع والزوابع، المكان الذي لاقاه الشعراء الرجَّاز في رسالة الغفران، فقد أعطاهم شيخ المعرة أكواخاً في الأعراف. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قد ثبت أن رسالة التوابع والزوابع أقدم من رسالة الغفران للمعري، إذ أنَّ "رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة ... ومن المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذي قلّد ابن شهيد"[36] .

ح- يتبيّن من التحليل السابق أن النامي يشير إلى قضية أدبية شاعت في الوسط الثقافي منذ بداية القرن العشرين، وهي ظهور الشعر الحر، الذي خرج فيه الشعر عن الوزن، وكان ذلك نتيجة طبيعية للمؤثرات الخارجية؛ الثقافية والاجتماعية وغيرها، وقد كان لهذا التغيير مؤيدوه، كما كان له معارضوه، الذين يرون أن الحركة بمجملها منقولة عن الشعر الأوربي ولا علاقة لها بالشعر العربي، ويعد الدكتور النامي من أشد المعارضين الليبيين لهذا النوع من الشعر، يتضح ذلك من مقالاته المتعددة، بدفعٍ من غيرته على لغته وتراث أمته، وسواء اتفقنا معه أم اختلفنا في بعض الجزيئات، إلا أنه يجب الإشادة بأنه قد وفق في عرض فكرته التي سعى لإبرازها، بمقالة جاءت خفيفة الظل، اعتمد فيها على المزج بين العقل والخيال الساخر الخصيب.

ط- امتازت هذه المقالة كغيرها من مقالاته بجزالة الألفاظ وفخامة الأسلوب، مما يدل على تمكنه من مقاليد اللغة وأدوات البلاغة كقوله: "ولولا الود الذي أحكمنا عراه لاعتراه ..." والمطابقة في قوله: "يروحون ويغدون، غادٍ ورائح"، "بياض نهاره من أجل سواده" وغيرها.

ي- يبرز بشكل واضح تأثره بالتعبير القرآني في عدة مواضع من هذا المقال كاستشهاده بالآية: (والشعراء يتبعهم الغاوون)،[37] أو كقوله: "بإثارة من علم"، و"هذه ديارهم خاوية كأن لم تكن عامرة بهم يضربون فيها يروحون ويغدون"، و"نسفت الجبال فجعلتها كالعهن"، و"أحالت البحار سعيراً"، و"في الدرك الأسفل من النار".

ك- استشهاده الموفق بالمثل العربي حين قال: "وما بقي منه غير ظِمأ حمار"، فقد ورد في اللسان: "قولهم: ما بقي منه إلا قدرُ ظِمْءِ الحمار أي لم يبق من عمره إلا اليسير، يقال: إنه ليس شيءٌ من الدواب أقصر ظِمْأً من الحمار، وهو أقل الدواب صبراً على العطش"،[38] أي الشيء اليسير.

ل- قدرته على توشيع مقالته بأبيات شعرية لخص فيها رأيه في هذا النوع من الشعر وعارض بها غيره، وهذا مما لا يصعب على شاعر فذٍ كعمرو النامي.

م- أخيراً ختم مقاله بشكل جيد حينما جعل هذا المقال وكأنه حلقة وصل بين الماضي والحاضر، ووعد بأن يكمل ما انقطع من تلك المخطوطة بفصول، فهو على علمٍ بها الآن، وهذا ما فعله في مقالاته اللاحقة.

الهوامش الدراسة:

1) ينظر: سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني، عمرو النامي مسيرة عطاء في درب الخير، تامغناست، 2007م، ص 27؛ ومحمد صالح ناصر، مقدمة لكتاب (دراسات عن الأباضية)، رسالة دكتوراه للدكتور: عمرو خليفة النامي، مركز الدراسات الإباضية، ص 10؛ والدكتور فتحي الفاضلي، العملاق الحاضر دوماً: الدكتور عمرو خليفة النامي، موقع ليبيا المستقبل، 2006/07/29.

2) سلطان بن مبارك، عمرو النامي مسيرة عطاء في درب الخير، مصدر سابق، ص 25.

3) ينظر: المصدر نفسه، ص 31.

4) ينظر: فتحي الفاضلي، العملاق الحاضر دوماً، موقع ليبيا المستقبل، مصدر سابق.

5) ينظر: سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني، مصدر سابق، ص 35.

6) محمود محمد الناكوع، عمرو خليفة النامي، مسيرته – مواقفه – أعماله الفكرية والأدبية، دار الرواد، ط 3، 2012، ص 13.

7) سالم الكبتي، "عبد الرحمن بدوي ... الخروج من بنغازي"، بوابة الوسط، 2019/04/18،

8) ينظر: سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني، مصدر سابق، ص 56؛ وموقع تاوالت.

9) محمد صالح ناصر، مقدمة كتاب دراسات عن الإباضية، ص 8.

10) يذكر أن ابنته تعمل على جمع ونشر ديوان لوالدها، لكنه لم يصدر حتى تاريخ كتابة هذا المقال.

11) سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني، مصدر سابق، ص 58.

12) محمود محمد الناكوع، مصدر سابق، ص 22.

13) سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني، مصدر سابق، ص 45.

14) المصدر نفسه، ص 290؛ والرسالة بتاريخ 19 رمضان 1400هـ.

15) ينظر: فتحي الفاضلي، مصدر سابق.

16) مهر الحضارة العربية، الدكتور عمرو خليفة النامي، صحيفة العلم، 1968/10/28م نقلاً عن: محمود محمد الناكوع، عمرو خليفة النامي، مسيرته – مواقفه – أعماله الفكرية والأدبية، ص 30.

17) جندي وراهب يسوعي وعميل سري (جاسوس) وأخيراً دبلوماسي، عاش في الفترة ما بين 1826–1888م، ولد في وستمنستر بإنجلترا.

18) جمعت هذه المقالات في كتاب لـ: أ. ل. شاتلية بعنوان "الغارة على العالم الإسلامي".

19) أ. ل. شاتلية، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة: مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، جدة، ط 2، 1387هـ، ص 93.

20) ربما يقصد بالمدارس (المدنية) المدارس النظامية الحكومية غير الدينية.

21) د. نفوسة زكريا سعيد، ولدت في الإسكندرية (1921–1989م)، أستاذ الأدب العربي الحديث بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية، وكتابها (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر)، رسالة دكتوراه، يلقي الضوء على هجمات المستشرقين وحلفائهم من العرب على اللغة العربية، ولها أيضاً في ذات الموضوع كتاب: عبد الله النديم بين الفصحى والعامية، وبحث بعنوان (الفصحى واللهجات العامية وأثرها في قومية الثقافة ومحليتها) أعدته بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية.

22) أشار محمود محمد الناكوع في هامش هذه المقالة بأنه لم يتمكن من الحصول على بقية هذا الموضوع، إما إنه لم ينشر أصلاً أو أنه نشر ولم يتحصل على العدد الذي نشر به. مصدر سابق، ص 38.

23) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، لغتنا والحياة، دار المعارف، ط 2، ص 125.

24) عبد السلام المسدّي، (اللغة العربية وتحديات العصر) اللغة العربية وهوية الأمة، مؤسسة عبد الحميد شومان، 2012، ص 26.

25) سلطان بن مبارك الشيباني، مصدر سابق، ص 266؛ والرسالة بتاريخ 4 أغسطس 1969م.

26) ابن شهيد (323–393هـ / 935–1003م) عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد القرطبي، وزير من أعلام الأندلس ومؤرخيها وندماء ملوكها، خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 15، 2002، جـ 4، ص 156.

27) ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، تحقيق وشرح: بطرس البستاني، دار أبو سلامة للطباعة والنشر، تونس، ط 1، 1985، ص 116.

28) عمرو النامي، فصول من الجد الهازل (توابع الزوابع)، نقلاً عن: محمود الناكوع، مصدر سابق، ص 39.

29) المصدر نفسه، ص 41.

30) سورة الشعراء، الآية 224.

31) عمرو النامي، لمحمود الناكوع، مصدر سابق، ص 42.

32) المصدر نفسه، ص 43.

33) المصدر نفسه، ص 44.

34) المصدر نفسه، ص 45.

35) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص 264؛ واتفق على هذا أغلب الباحثين. ينظر: عائشة عبد الرحمن في تحقيقها رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 387؛ ومصطفى عليان، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1986، ص 578.

36) سورة الشعراء، الآية 224.

37) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 4، 2005، م 9، ص 195؛ مادة (ظ م أ).